**ثالثا- السرد الفلسفي:**

الفلسفة هي نشاط عقلي تأمُّلي يهدف إلى دراسة ظاهرة ما وتحليلها قصد إدراكها والعلم بها والتعَّرف عليها من كلَّ جوانبها واكتشافها بدءاً، ثم إثبات منطقها لما فيها من أسباب ومسّببات، ثم اكتشاف علاقاتها بغيرها من الظواهر الأخرى المجاورة لها وكيفية تفاعلها معها، وهي "تأمل الوجود"، وفي كل وسيلة يمكن أن يفهم بها هذا الوجود، ذلك أن الهاجس المعرفي والقلق الوجودي هما اللذان يدفعان الفرد إلى تأمل ما حوله ومراقبته، ومن ثم البحث والتقصَّي والجري وراء الحقيقة لإضاءة نقاط الشك والقضاء على مبعث الخوف والحيرة، وصولا في النهاية إلى نتائج تبعث على الاستقرار النفسي والاطمئنان([[1]](#footnote-2)).

أما صلة الفلسفة بالسرد فهي وثيقة حيث أن "القصص والتواريخ من بين وسائل فهم الوجود البارزة"، بما تضعه أمام الباحث من حوادث وأفعال حقيقية أو متخيلة تؤدي إلى العلم بالشيء ثم تساعد بقراءاتها المختلفة وتأويلاتها المتعدّدة على إنتاج تمثيلات الحقيقة، فالفلسفة أخذت من السرد مادة واستوحت منه أفكارا واستقت منه قضايا كما استعملته أداة شرح وتوضيح.

والسرد الفلسفي الرؤيوي عند ابن سينا وابن طفيل، يعرض سببية فلسفية عندما توظف رموزا ومفاهيم تكون أساسَها ومدارَها، إضافة إلى الطاقة الخيالية الجبَّارة التي تتولد عنها التصورات والأفكار عبر التمثل، تساعد السببية الفلسفية والتمثُّل كلاهما بطريقة أو بأخرى على النظر في لكون وتدبُّره ممَّا أشار إليه التوحيدي ويتصل بمسألة تأمل الوجود.

أول من ألف رسالة فلسفية على الطريقة الصوفية في الرمز هو ابن سينا (أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا)، ويلقب بالرئيس (**980م**-**1037م**) وهي تسمى: رسالة حي بن يقظان، وحي يقصد به العقل الفعال، أو النفس الملكية المفكرة، وهذا العقل حي دائما، غير متغير لا يهرم أبدا، وابن يقظان كناية عن صدوره عن القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، والرحلة الموصوفة في الرسالة رمزية، ترمز إلى طلب الإنسان المعارف الخالصة، بصحبة رفقته من الحواس وفي حركة تطلب المعارف العليا، يستعين الإنسان بالعقل الفعال الذي يهديه عن طريق المنطق والفلسفة، وبفضل مصدر المعارف الذي هو مصدر النفس الملكية. وهذا العقل الفعال قدسي، ويحذر هذا العقل الفعال الإنسان عن رفقته (حواسه) ومن التخيل الذي يعبر عنه ابن سينا قائلا« وأما هذا الذي أمامك فباهت مهذار، يلفق الباطل تلفيقا، ويختلق الزوار اختلاقًا، ويأتيك بأخبار ما لم تزود، قد درن حقها بالباطل، وضرب صدقها بالكذب، وإنك لمبتلي بإنتقاد حق ذلك من باطله، والتقاط صدقه من زوره....» ([[2]](#footnote-3)) وبهذا العقل الفعال يهتدى المرء إلى الحقائق العليا، والأفلاك التسعة التي هي العقول التسعة، ثم علّة العلل، وهو العقل العاشر.

وبعد ابن سينا، ألف الفيلسوف العربي ابن طفيل **(506ﻫ-581ﻫ-1110م-1185م)** رسالة أخرى بعنوان حي بن يقظان، في أسلوب قصصي رمزي أيضا، ذات طابع صوفي، يدعو فيها إلى فلسفة الإشراق الروحي، عن طريق التأمل، وقصة حي ابن يقظان هي التي تهمنا بخاصة في هذا الموضع، لصبغتها الأديبة القصصية.

وموضوعه يتلخص في أن طفلا اسمه حي بن يقظان الاسم رمزي معناه مطابق لما مرَّ ذكره عند ابن سينا، نشأ في جزيرة من جزر الهند دون خط الاستواء، ومن غير أب ولا أم، لأن تلك الجزيرة أعدل بقاع الأرض، ولإشراق النور عليها، فتخمرت الطينة فيها طويلا حتى صلحت لتولد الحياة، ويحكى ابن طفيل أن ذلك الطفل- على حسب رأي آخر- لم يتولد من الطينة مباشرة، بل كان إبن أخت ملك، تلك الجزيرة المجاورة، حملت به سرًا من زواج مشروع برغم أخيها الملك فلما ولدته وضعته في تابوت أحكمت زمه، وأسلمته لأمواج البحر، فحملته الأمواج إلى تلك الجزيرة المجاورة، وأيا ما كان مولده فقد ربته ظبية حنت عليه لأنها حسبته رضيعها المفقود، وكبر الطفل، وكان ذا موهبة فذة فلحظ وفكر فاهتدى إلى أفكار كثيرة طبيعية، أو تمت بصلة إلى ما وراء الطبيعة ثم اهتدى كذلك إلى ما اهتدى إليه الفلاسفة الإشراقيون، من الفناء في الله عن طريق الوجد والهيام في معناها الصوفي. وحاول بهذا الوجد أن يرحل من هذا العالم، في حين أتى إلى نفس الجزيرة متصوف آخر يقال له: «أبسال»، كان في جزيرة أخرى يعبد الله على دين أهلها السماوي وأراد أن يعتزل الناس في الجزيرة التي فيها حي بن يقظان، وأن يعبد الله فيها على طريقته الصوفية، معتقدا أن الجزيرة خالية من السكان.

وسرعان ما التقي بحي بن يقظان، فتعارفا وعلمه«أبسال» اللغة، ولم يكن من قبل يعرف عنها شيئا، ثم الشرائع السماوية، ثم قاده إلى الجزيرة المجاورة التي كان قد أتى منها، وهناك حاولا أن يهديا أهلها إلى الحقائق الكبرى التي تتجاوز حدود الشريعة دون أن تضارها وأن يبينا لهم أن الجزاءات المادية في الكتب السماوية ليست سوى رموز، وأن الحب يقود إلى القربى من الله والفناء فيه، ولم يفلحا في دعوتها فاقتنعا أن هذه الحقائق التي اهتديا إليها بالفطرة والعاطفة لا سبيل لها إلى قلوب العامة، وأدركا حكمة الشريعة في مسايرتها عقول العامة على قدر ما تيسر لهم فهمه، وحينئذ نصحا إلى هؤلاء العامة بالثبوت على دين الآباء. ثم رجعا إلى جزيرة حي بن يقظان، ليتعبدا، على طريقتها، حتى الرحيل من دار الشر والبؤس.

وفي قصة "حي بن يقظان" جوانب نضج قصصي كثيرة، في المسرح والتبرير والإقناع بالأحداث، على الرغم من أن القالب القصصي فيها ليس سوى تعلة لذكر الآراء الفلسفية الكثيرة، ولهذا عدّها بعض نقاد أوروبا خير قصة في العصور الوسطى جميعا.

ويعترف ابن طفيل في مقدمة قصته أن تأثر بقصة ابن سينا([[3]](#footnote-4)).على أنه في الحقيقة لم يأخذ عنه سوى الاسم، والطابع الفلسفي العام ولكن فلسفته الإشراقية، وطابعه القصصي المشرق تبين فيها أصالته، وقصته فريدة في الأدب العربي القديم، على الرغم من طابعها التجريدي.

وبعد تأمل المخلوقات سيتعرف حي على الخالق وصانع هذا الكون الجميل، وعندما التقى حي بصديقيه أبسال وسلامان، بذلك استطاع التعرف على خصائص الشريعة الربانية ومقومات العبادة العملية.

وتهدف هذه القصة الفلسفية في الحقيقة إلى التعرف على خصائص الشريعة أو التوفيق بين العقل والظاهر النصي.

وتأثر ابن طفيل في هذه القصة بالقرآن الكريم وخاصة قصة موسى عليه السلام، حينما وضعته أمه في التابوت رضيعا وألقت به في اليم كما أمرها بذلك ربها هروبا من جنود فرعون المتوحشين الذين كانوا يبطشون بالرضع ويقتلونهم ظلما وتحبرا في الأرض، وكذلك قصة قابيل مع أخيه هابيل في كيفية الدفن، وقصة آدم وحواء في ستر العورة بالأعشاب.

1. () ينظر، إبراهيم صحراوي: السرد العربي القديم، ص [↑](#footnote-ref-2)
2. () ابن سينا، رسالة حي ابن يقظان، رسالة القدر، طبعة ليدن 1899، ص 10-11. [↑](#footnote-ref-3)
3. () انظر: أحمد أمين، حي بن يقظان لابن سينا وابن طفيل والسهر وردي، دار المعارف، القاهرة، 1952، ص135. [↑](#footnote-ref-4)